خارطة نفر والتحصينات الدفاعية للمدينة

د. محمد سياب محان/ كلية الآداب – قسم الاثار/ جامعة القادسية

يعرف موقع مدينة (نيبور) Nippur في الوقت الحاضر باسم نفر Nuffer وهو امتداد لأسمها القديم كما هو واضح . قامت المدينة على ضفاف نهر الفرات من جهته الشرقية . وهي تبعد حوالي 190 كم الى الجنوب الشرقي من مدينة بغداد حالياً, وعن مدينة بابل حوالي 120 كم باتجاه الجنوب ، وتقع على مسافة 7 كم شمال شرق مدينة عفك احد المدن التابعة لمدينة الديوانية الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات الاقدم . ويصلها الزوار بالسيارة من الديوانية الى مدينة عفك ولمسافة 23 ميلاً ثم يتم قطع الاميال الاربعة الباقية بالقارب او على ظهر حصان , وهذا كان سابقا أما الان فيمكن قطع المسافة بالسيارة .[1] وعلى الجهة الشمالية الشرقية لمدينة الديوانية وعلى بعد 25 كم تتضح لك معالم المدينة والموقع الذي يغطي مساحة تقدر بـ 1.5 كم^2 ويبلغ ارتفاع أعلى نقطة في الموقع حوالي 25 متر فوق مستوى سطح السهل المحيط به. [2]يشتمل هذا الموقع على عدة تلال تبرز على جانبي أخدود عميق يدعى محلياً (شط النيل) ، وهو عبارة عن المجرى الجاف للقناة التي كانت تخترق المدينة في العصور القديمة ، والتي شخصت في خارطة نفر القديمة على انها قناة (اد شاورو) idschauru أي قناة قلب المدينة.[3]والموقع يقوم حالياً على حافة صحراء مغطاة بالكثبان الرملية ، وتشهد المواقع الاثرية المحيطة به على ان نيبور Nippur لم تكن مجرد مدينة كبيرة قائمة بذاتها وانما كانت مركز لتجمع مدن لها وظائف ذات صلة بدور هذه المدينة باعتبارها المركز الديني الرئيسي في بلاد ما بين النهرين القديمة.[4] يرد اسم المدينة في النصوص المسمارية بصيغة (نيبور) Nippur DUR-AN(108) و (نبرو) NIBRU(99) . [5] ويكتب بالعلامة المسمارية التي يكتب بها اسم (انليل) ، اهم الالهة في ديانة بلاد ما بين النهرين القديمة ، مع اضافة العلامة الدالة على اسماء المدن اليها (^{Ki}) وبهذا الشكل (انليل – كي) EN – LIL^{ki} أي مدينة الاله انليل.[6]

ولما كانت هذه المدينة هي المركز الرئيسي لعبادة الاله انليل فقد اعتبرت اهم المراكز الدينية في جميع عصور حضارة بلاد ما بين النهرين القديمة حتى دون ان تصبح عاصمة لأي سلالة حاكمة في أي من تلك العصور.[7]

وتعد (نيبور) Nippur واحدة من اقدم المدن في جنوب بلاد ما بين النهرين ، فقد تم استيطان هذه المدينة منذ الالف السادس قبل الميلاد الى حدود عام 800 ميلادي ، أي انها استمرت قائمة قرابة ستة الاف عام (6000) . فقد اثبتت المجسات العميقة والكسر الفخارية المتناثرة ان هذا الموقع كان

موجوداً في دور العبيد ، وكذلك من اوائل الالف الرابع قبل الميلاد ، اكتشف فخار الوركاء واثار دور جمدة نصر في الجزء الغربي من الموقع . وفي الالف الثالث قبل الميلاد امتدت ارجاء المدينة على كلا جانبي القناة الرئيسية التي تتوسط الموقع.[8] وقد وصلت (نيبرو) NiBru الى اقصى اتساع لها في عصر سلالة اور الثالثة (2112 – 2004 ق.م) حيث بلغت مساحتها 135 هكتار ، وتوسعت الاحياء السكنية حينذاك باتجاه الجنوب وعززت اسوار المدينة [9] في الالف الثاني قبل الميلاد تقلصت مساحة المدينة وكذلك لم يتم توسيع الخدمات في الاسوار باستثناء بعض الاجزاء وخاصة النصف الشرقي من المدينة حيث استمر في السكن, وربما يعود هذا التقلص الى تغير نهر الفرات لمجراه , فقد تركت المدنية بشكل كامل في عام 1720 ق.م حيث غطت المدينة الرمال ولم يتبقى منها سوى معبد ايكور (معبد الاله انليل) في تقديم الخدمات. لكن هذه الفترة انتهت بحلول القرن الرابع عشر قبل الميلاد تحت حكم السلالة الكاشية حين عاد نهر الفرات يجري غرب المدينة وتحول مجراه القديم الى قناة تخترق وسط المدينة .[10]

وفي الالف الاول قبل الميلاد شهدت (نيبرو) NiBru ازدهاراً واضحاً منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد . ولم يقتصر السكن في المدينة في القرن السادس قبل الميلاد على البابليين والاراميين فقط وانما حلت اقوام اخرى في المدينة وفي المناطق المحيطة بها . فكان هناك الليديون والفريجيون القادمون من غربي بلاد الاناضول وشرقيها وفضلاً على هؤلاء الاقوام وجد ايضاً اغريق وفلسطينيون من غزة ومجموعات من اهالي صور وربما من يهوذا ايضاً واصبح بالإمكان احصاء (89) تسع وثمانون مستوطناً تطل على ستين (60) قناة محيطة بـ (نيبرو) آنذاك والبعض من هؤلاء الاقوام الاجنبية بقيت قاطنة هناك لأكثر من مائتين سنة.[11]

وحظيت المدينة بمكانة خاصة في اثناء حكم الاخمينيين (550 – 330 ق.م). والى هذا العصر يعود الارشيف المكتشف الذي يخص احدى الاسر الثرية وهي اسرة ((موراشو)) MuRashu الذي يوثق نشاطات هذه الاسرة الاقتصادية.[12] ويدل العدد الكبير من النقود السلوقية التي اكتشفت في موقع المدينة على اهميتها خلال العصر الهلنستي. وقد استمرت هذه المدينة مزدهرة في العصور الساسانية والاسلامية المبكرة (242 ق.م – 750 م) وتطورت كثيراً في العصر العباسي الاول حينما كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية . وفي العصر العثماني لم تكن هناك سوى قرى متناثرة فوق سطح موقع نفر nuffar.[13]

ان هذا العرض التاريخي الموجز يعطي فكرة واضحة حول تغير مصير نيبور Nippur حسب تغيير مجرى النهر ، على ان هذا ليس في نيبور فقط وانما مدن اخرى واجهت كذلك نفس المصير . ان

انبساط السهل في جنوبي بلاد ما بين النهرين لا يشكل أي اعاقة في مجرى الانهار وخاصة مصبات نهر الفرات والتي تنحت شكل القاع مرة اخرى لكي يعود النهر الى شكله السابق اما في الوقت الحاضر تشكل السدود اعاقة لمجرى الانهار والتي من خلالها يتم التحكم والسيطرة عليها .

بدأت التنقيبات الاجنبية في هذا الموقع في منتصف القرن التاسع عشر ، اذ بدأ العالم الانكليزي (اوستن هنري ليرد) Austen Henry Layard التنقيب في هذه المدينة في عام 1851 م بواسطة فتح خنادق في مواضع متفرقة من الموقع ، ثم توقف عن العمل في عام 1887 م دون ان يحقق أي نجاح يذكر .[14] غير ان الاكتشافات الجديدة في المواقع الأخرى في بلاد ما بين النهرين قد شجعت الكليات والجامعات الامريكية ان تولي اهتماماً شديد بآثار بلاد ما بين النهرين .

وكانت اول علامة على الرغبة في الاشتراك في اعادة اكتشاف عالم بلاد ما بين النهرين بعثه ارسلها المعهد الآثاري الامريكي عام 1884 م مّولت بأموال خاصة.[15] وقد ركزت البعثة اهتمامها في المواقع الجنوبية الرئيسية . وكانت لهذه البعثة نتيجة غير مباشرة تمثلت في خطة طموحه للتنقيب في مدينة نفر وضعتها جامعة بنسلفانيا عام 1888 م ولسوء الحظ افسدت هذه العملية من البداية الخلافات الشخصية المريرة , لاسيما بين هيلبرشت استاذ علم الاشوريات الالماني المولد وبين المديرين الحقليين, ج ، بيترز استاذ اللغة العبرية و ج. هـ . هينز , ورغم وضع خطط دقيقة ، كانت بداية عمل البعثة سيئة وازدادت سوءاً اذ لم تكن الاموال كافية ولم يكن هناك اشخاص مناسبين للعمل في هذه البعثة بحسب ادعاء هلبرشت الذي شكى من قلة المساعدين المدربين.[16] كما كان الوضع الصحي في منطقة نفر غير جيد اضافة الى مشكلة التعامل مع افراد العشائر وانتهت الحملة الاولى نهاية مضطربة خاصة بعد ان تم السطو على مخيم البعثة ليلاً وتم حرقه ونهبه, على ان هذه البعثة لم تتبع آنذاك طرق تنقيب علمية وانما اعتمدت اسلوب حفر الخنادق والانفاق وابقاء الاتربة الناتجة عن الحفر على سطح الموقع نفسه مما نجم عنه تشويه وتخريب للطبقات. وكان ذلك كله من اجل تحقيق اكتشافات سريعة ، وهذا ما حصل فقد تم استخراج ما يقارب 17000 سبعة عشر الف رقيم مسماري بيد انه ضاعت معلومات مهمة اخرى بسبب طريقة التنقيب تلك.[17]

ولعل ابرز ما عثرت عليه البعثة الامريكية المشتركة بين جامعة بنسلفانيا والمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو خلال سنين رحلتها في البحث والتحري في مدينة نفر ، هو ذلك اللوح الذي وجد على احد الاباريق الطينية عام 1899 والمتمثل بخارطة مدينة نفر (انظر الشكل رقم 1) التي تعتبر اقدم خارطة للبلاد في هذه الارض.[18] اللوح كان من مجموعة المنقب (هيرمان هلبرشت) Herman Hillprecht والذي اظهر رسماً صغيراً للوح في كتابه (استكشافات في بلد الكتاب المقدس) عام 1903 ، ولم يكن

بالإمكان التعرف على شيء من خلاله . وقد بقي اللوح في بادئ الامر مع مجموعة اخرى من الالواح الطينية قدرت بـ (2500) لوح في جامعة (ينا) (Jena) في المانيا الديمقراطية آنذاك ، وعن طريق الصدفة علم صمؤيل نوح كريمر, الذي تولى منصب هلبرشت العلمي في جامعة بنسلفانيا, بوجود هذه الالواح لكنه لم يجد القدرة على الدخول الى الجامعة الالمانية وذلك بسبب (قيام النازية اولاً وبعدها الحرب ومن ثم الستار الحديدي). وهكذا الامر حتى عام 1955 فقد حصل كريمر على تأشيرة دخول لألمانيا الديمقراطية واستطاع البقاء فيها 10 عشرة اسابيع ، بعد ذلك اصبح في متناول يده اللوح باعتباره خبير نفر الاول . فقد فهم الخارطة آنذاك بانها خارطة نفر واستطاع ان يعرضها بنحو سليم وبذلك عادت خارطة مدينة نفر القديمة ذات 3500 عام الى منقبي نفر عبر الولايات المتحدة الامريكية ومدينة (ينا) على شكل صورة, وبناءاً على الخارطة المكبرة ذات القياسات الدقيقة اوضح الدكتور اينز برينهاردت وبأشراف كريمر مرافق نفر القديمة و زقوراتها ومعابدها الشهيرة, كما فعل ذلك لاحقا مكواير جبسن.[19]

رسمت خريطة نفر على لوح طيني كبير, بقي منها كسرة يقرب حجمها من 21 × 18 سم تقريباً. [20] (انظر الشكل رقم 1) رسمت الخارطة في العصر الكاشي وهي تصور الجزء الشرقي من المدينة ، وهو القسم الاكثر اهمية وقدسية فيها. [21] من المظاهر الفنية للخارطة انها رسمت دون مقياس رسم معين ، حيث استغني عن ذلك بكتابة ابعاد بعض الابنية والقنوات كل قرب شكله الموضح في الخارطة ، علماً ان الذي رسم الخارطة اورد هذه الابعاد بهيئة ارقام مجردة ، دون ذكر نوع وحدة القياس المستخدمة . الا انه يبدو من الدراسات المستفيضة ان تلك الارقام كانت تشير الى وحدة لقياس الاطوال هي على الاغلب وحدة (الكار) تعادل (200 قدم تقريباً). [22] اما الصفة الاخرى للخارطة هي خلوها من اشارة التوجيه نحو الجهات الاربعة ، مما ولّد صعوبة كبيرة في تعيين اماكن المواقع التي وردت فيها واتجاهات اسوارها ومداخلها ، الا انه من المرجح ان يكون مجرى نهر الفرات عند الجزء الشمالي الغربي للمدينة ويمتد نحو الشرق وان يكون معبد (ايكور) وزقورة انليل عند القسم الجنوبي او بالاصح الجنوب الشرقي منها (اسفل) الخارطة واذا كان هذا الاستنتاج صحيحاً فان واضع الخارطة قد اعتمد في توجيهها على جعل جهة مشرق الشمس ، بانحراف نحو الشمال الشرقي ، هي الجهة الرئيسية ، وهي تمثل القسم العلوي من الخارطة . وحين ذاك فأن زوايا سور المدينة تتجه نحو الجهات الجغرافية الأربع. [23]

ويرجح أن الخارطة قد رسمت على الأغلب لخدمة غرض دفاعي , كما يذهب الى ذلك كريمر, وذلك من خلال الاهتمام الخاص بتوضيح تفاصيل العناصر الدفاعية فيها مثل الخندق والاسوار والبوابات.[24] ويبدو لنا ان هذه الخارطة تصور جزء من الجانب الشرقي للمدينة وبخاصة تحصينات السور الداخلي المحيط بمركز المدنية ونواة تجمعها الديني ، حيث احيط هذا الجناح من المدينة بسور

يمتد حول جهاتها الاربع (ظهر منه في اللوح ثلاثة اضلاع فقط بسبب تهشم اللوح) ويمتد السور بمسارات متعرجة وهو في ذلك يختلف في نمط تصميمه عن جميع انماط الاسوار المعروفة بامتداداتها ذات الطابع الهندسي او المنتظم نوعاً ما . ويبدو لنا ان تصميمه بهذه الصورة كان نتيجة لاختيار موقعه فوق اكثر المناطق ارتفاعاً عما يحيط بالمدينة دون الاهتمام بالشكل العام له في محاولة للحد ، بارتفاعه هذا ، من تأثير العوارض الترابية وزحف الكثبان الرملية عليها ، ويجنبها من خطر الانطمار تحتها ، علماً ان الكثبان الرملية تشكل احدى الظواهر الطبيعية الممتدة في المنطقة والتي لا تزال تعاني منها هيئات التنقيب في المدينة. [25] ومما نقش على الخارطة ان للسور عدداً من المداخل فتحت في انحاء متفرقة منه . ويحيط بالسور من الخارج خندق ورد اسمه بصيغة (خريتم) Hritum , والتي تعني باللغة الأكدية (خندق)[26], يمتد حولها من ثلاثة جهات بينما احاط بالضلع الرابع منها مجرى مائي ربما كان نهر الفرات او جدول رئيسي يتفرع منه . ويبدو من تلك الخارطة ان التقسيم الحضري لمركز المدينة يتألف من عدد من الاحياء والقطاعات السكنية والخدمية . اما اهم اقسام هذا الجناح من المدينة فقد تم عزله عن بقية الاحياء بواسطة قناة مائية تقطع المدينة من الشرق الى الغرب ورد اسمها بهيئة (نهر قلب المدينة). [27]

ان سور مدينة نفر الخارجي والذي يحيط بالمدينة يرتقي تاريخه الى عصر سلالة اور الثالثة (2112 – 2004 ق.م) ويبلغ عرض السور (14 متر) ملتف حول المدينة بارتفاع (10 متر) عشرة امتار ، والسور مّر بثلاث مراحل او ادوار بنائية فالدور الأول والثاني على التوالي يرتقيان الى عصر اور نمو (2112 – 2095 ق.م) وهذا ما اثبتته تنقيبات البعثة الامريكية سنة (1974 – 1975) برئاسة الدكتور مكواير جبسن ، الذي عثر على اجرات مختومة بختم اسطواني للملك (اورنمو).[28] اما الدور الثالث فيرتقي الى السنة 44 الرابعة والاربعين من حكم الملك شولكي (2094 – 2047 ق.م) والدليل ما اثبته رقيم طيني تم العثور عليه في الزاوية الجنوبية من سور المدينة من قبل نفس البعثة السابقة. [29] ويحتوي هذا السور على بوابة واحدة فقط كبيرة من جهة الشرق واسمها بوابة (ماخ) Mah وتعني الباب العظيمة وهي البوابة الرئيسية للمدينة وارتفاعها 7م وعرضها 10 م . وقد بني السور من اللبن ذو القياس 9x39x39 سنتمتر, والمخلوط بالقش.

وبالإضافة الى هذا السور الكبير الذي يحيط بالمدينة ، كانت هناك اسوار اخرى داخلية وعددها ثلاث اسوار. الاولى كانت من الجهة الجنوبية الشرقية للمدينة بنيت من قبل الكشيين (1157 – 626 ق .م), وهذه السور تمتد من الجهة الجنوبية الشرقية حتى الجهة الجنوبية الغربية وبعرض يتراوح بين (5 – 6 متر) وارتفاع لا يتجاوز (12 متر) وقد بني هذا السور على انقاض دور سكن قديمة وقد كان

السور الكاشي اكثر فاعلية من السور الكبير من الناحية الدفاعية بسبب الخندق الذي حفر حوله من جهته الخارجية والذي قطع وزال واجهة السور القديم. السور تخترقها ثلاثة بوابات متوسطة الحجم لا تتجاوز فتحة الباب 8 متر . وتسمى الباب الاولى (كاجال – ننا) Kagal – Nanna أي بوابة الاله (ننا) والاله (ننا) الاسم السومري للإله القمر.[30] اما الباب الثانية فهي (كاجال – اوروك) Kagal – uruk أي بوابة اوروك. والبوابة الثالثة فهي بوابة (كاجال – اجيبي– اور– يشا) Kagal – igibi-uri-she أي البوابة المواجهة لمدينة اور. وهذا السور مبني أيضا من اللبن ذو القياس 9x39x39 سنتمتر.

اما السور الثانية فتقع في الجهة الجنوبية الغربية للمدينة وهي امتداد للسور الاولى وبنفس الابعاد وتخترقها ايضاً ثلاثة بوابات .الاولى تسمى (كاجال – موسوكاتيم) kagal musukkatim وتعني بوابة الرجس الجنسي , وقد اشار بهذا المعنى الاستاذ (ادم فالكشتاين) العالم الامريكي باللغات القديمة, اما الباب الثانية تسمى (كاجال – ماخ) Kagal – Mah أي البوابة العالية او السامية. امام الباب الاخيرة فتسمى (كاجال – جولا) Kagal Gula أي البوابة العظيمة والتي تؤدي الى معبد (انانا) أي الداخل منها يواجه معبد (اننا). والمسافة بين كل باب من هذه الابواب تتراوح نحو 940 قدم. [31]

اما السور الثالثة وهي السور الشمالية والتي يبلغ ارتفاعها (11 متر) وعرضها يتراوح بين 5 – 6 متر فليس بها سوى بوابة واحدة وهي البوابة المسماة (كاجال – نرجال) kagal Nergal أي بوابة الاله نرجال وهو الاله الذي ملك العالم السفلي في احد اطواره ولعب دوراً مهماً في اسطورة (رحلة اينانا الى العالم السفلي). وقد بنى هذه السور الكشييون ايضاً من اللبن ومن نفس القياسات السابقة.

ومن خلال ما تقدم يمكن استنتاج ما يلي :

1- ان للمدينة سبعة بوابات رئيسية احاطت المدينة من كافة جوانبها , كان الهدف منها سهولة الدفاع عن المدينة في حالة أي عدوان خارجي مما أضفى على المدينة بعدا سوقيا على الرغم من ان المدينة لم تكن عاصمة سياسية على مدى تاريخها الطويل, بل كانت قبلة السومريين والاكديين والبابليين المقدسة .

2- للرقم سبعة حكاية مع العراقيين القدماء و ربما الحاليين , كونه رقما مقدسا ارتبط مع السموات السبع والارضين السبع و عدد أيام الخلق السبع و عدد طبقات الزقورة السبع وهكذا. ربما لكونه رقما فرديا والمعروف لدى العراقيين شغفهم بالأعداد الفردية التي غالبا ما تنسب للآلهة على سبيل المثال الهة العراق القديمة (انو و انليل و ايا) أو ما يعرف بالثالوث المقدس.

3- استغلال العراقيين القدماء وبكفاءة عالية الموارد المائية للأغراض الدفاعية, لاسيما نهر الفرات, من خلال شق القنوات والترع لتكون حاجزا مانعا لأي عدوان خارجي .

4- ان العشوائية في تخطيط المدينة وخاصة في اختيار أماكن العبادة فيها لا يعني بالضرورة عدم الفهم في التخطيط بل جاءت وفق مخطط تعبوي دقيق لا سيما التفكير في تشتيت جهد العدو في حالة العدوان الخارجي, على اعتبار ان المدينة مقدسة واهميتها تكمن من خلال السيطرة على معابدها.

المصادر

1. بصمجي , فرج., " نفر " , سومر,مج9 ,ج2 , 1953,ص,281.

2. Fisher,C.S.,Excavations at Nippur,1889-1900, Philadelphia,1905,P.8.

3. كريمر , صامويل., الواح سومر, 1956,USA,ترجمة , طه باقر,ص,397.

4. Gwendolyn,Leick.," Mesopotamia, The invention of the city, . London: 2001. P.144.

5. لابات , رينيه., قاموس العلامات المسمارية , بغداد,2004 , ترجمة, البير ابونا,ص.299.

6. Gwendolyn,Leick.,…OPCIT.P.150.

7. Ibid.p.147.

8. Ellis,M.D., Nippur at the Centennial,Philadelphia,1992,P.25.

9. Ibid, P. 25.

10. Gwendolyn,Leick.,…OPCIT.P. 144.

11.Ibid, P. 145.

12. Ellis,M.D.,..OPCIT.P.31.

13. Gwendolyn,Leick.,…OPCIT.P. 145.

14. رشيد, قحطان., الكشاف الاثري في العراق, بغداد , 1987 , ص, 237.
15. نفس المصدر, ص, 238.
16. بوستغيت,نيكولاس., حضارة العراق و اثاره تاريخ مصور, بغداد,1991 , ترجمة , سمير الجلبي,ص,44.
17. نفس المصدر,ص,44.
18. Jone,P.Peters.,Nippur or Exploration and Adventures on Euphrates,vol,1,2,New York,1897,P248.
19. كريمر , صامويل.,ص,401.
20. نفس المصدر,ص,395.
21. Gibson,M.G.,"Nippur 1975,A summary Report", SUMER,vol,34,1978,P.118.
22. كريمر , صامويل.,ص,399.
23. Gibson,M.G.,P. 111.
24. كريمر , صامويل.,ص,397.
25. نفس المصدر,ص,397.
26. نفس المصدر,ص,399.
27. نفس المصدر,ص,397.

28. جبسن,مكواير. تنقيبات المعهد الشرقي في نفر الموسم السابع عشر 1987 , سومر, مج50 , 1993,ص,15.

29. نفس المصدر.,ص, 22.

30. كريمر , صامويل.,ص,397.

31. كريمر , صامويل.,ص,397.

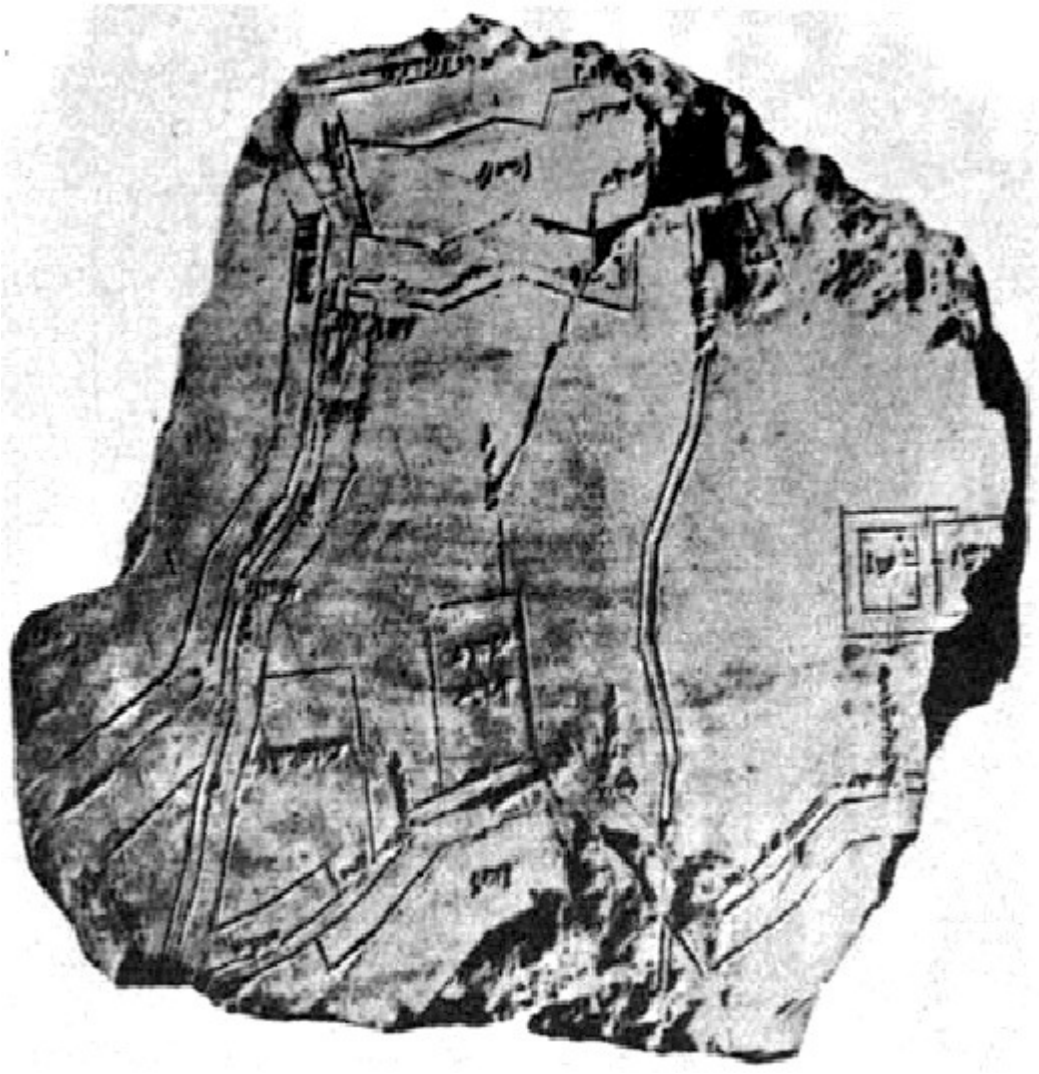

شكل رقم (1) لوح خارطة نفر

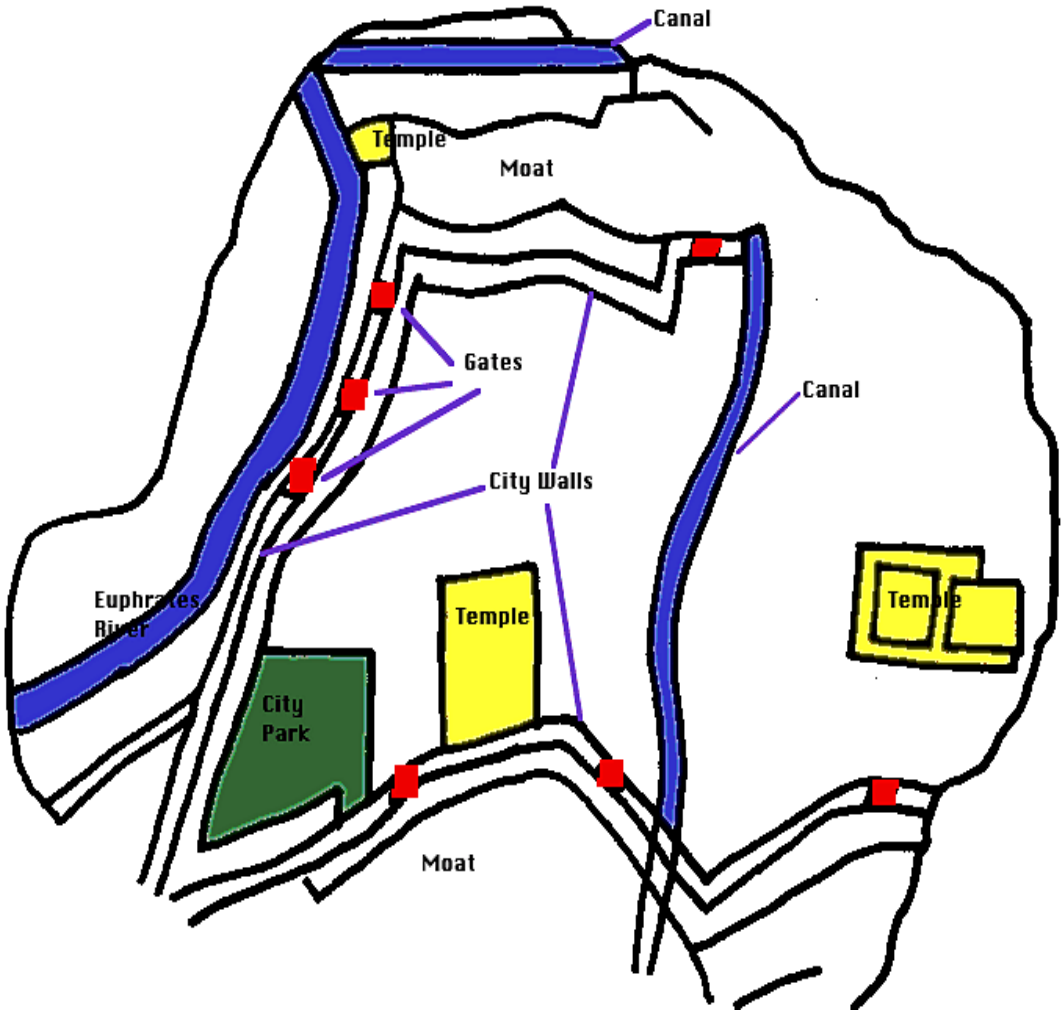

شكل رقم (2) خارطة مدينة نفر